حبوب نفسية

رواية

رانية مرجية

2025

حبوب نفسية

رواية

رانية مرجية

الاهداء

إلى كلِّ قلبٍ جلسَ يومًا أمام كرسيٍّ فارغٍ يحاوره،

إلى الذين عرفوا أن الغياب لا يرحل، لكنه يتعلّم الأدب حين نسمّيه،

إلى الأمهات اللواتي ورّثن بناتهنَّ خوفًا من غير قصد، والبنات اللواتي غفرن...

إلى كلِّ يدٍ ارتجفت ثم كتبت اسمها كي لا تنسى نفسها.

هذه الصفحات بيتٌ لكم، وماءٌ بليمون.

✦ المقدمة

«حبوب نفسية» ليست حكاية عن مرضٍ ولا عن دواء.

إنها رواية عن امرأةٍ اسمها ليان قررت أن تُقيم سلامًا مع ظلِّها، لا أن تشنّ عليه حربًا.

بين الأم التي تحمل خوفًا قديمًا، والصديقة التي ترسم أبوابًا مفتوحة، والجارة التي تصرّ على رائحة النعناع، يتكوّن بيت صغير يتّسع للغياب لكنه لا يسلّمه المفاتيح.

الرواية مكتوبة بلسانٍ شعريّ، يمشي بين الاعتراف والقصيدة، لتقول: الشفاء ليس نهاية، بل عادةٌ يومية تُختار كما يُختار كوب ماء عند الفجر.

الفصل الاول

جرس داخلي

استيقظتُ على جرسٍ لا سلكَ له. لا ساعةَ في الغرفة سوى دقّات قلبي عندما تتذكّر نفسها. فتحتُ الدرج الخشبي، مددتُ يدي كما تفعل الراهبة حين تُبارك الماء، ورفعتُ الحبّة البيضاء لتفطر صباحي قبل القهوة.

الحبّة صغيرة، لكنّ ظلّها طويل؛ يسقط على كلامي فيجعله أقلّ فوضى، وعلى حنيني فيجعله أقلّ حِدّة. أضعها على لساني كما لو أنّي أتناول صلاةً بلا مؤمنين، ثم أشرب جرعة ماء. في تلك الثانية، أشعر أن روحي تذوب مثل سكرٍ في فم الغياب.

على الحائط، مرآةٌ أغلّفها بشالٍ أزرق كي لا تراني تبكي. يقولون: المرآة تحفظ سرّك. وأنا أقول: المرآة تحفظ خساراتكَ مرتّبةً على رفّ النظر. أمسح بطرف الشال غُبار الليل، أفتح النافذة. المدينة تمضغ الصباح على عجل، وبائع الخبز يجرّ صوتَه على الإسفلت كحنينٍ قديم.

على حافة السرير، يجلس هو—لا اسم له بعد. الغائب يبتسم كأنني وعدته. “صباح الخير يا ليان”، يقول، “لا تتأخري على موعدكِ مع الطبيب. سيقترح عليكِ اسمًا جديدًا للهدوء.” أضحك بلا صوت. أخاف أن يمرّ اسمه في أذني فيستقرّ كإبرة. أكتب على ورقةٍ مرقّطة: لا اسم اليوم. سنجعل الحضور يتدرب على الفراغ.

الهاتف يرنّ. أمي تسأل إن كنتُ تناولتُ الدواء:

— "نعم."

— "لا تعتمدي عليه كثيرًا، يا بنتي. الإيمان أقوى."

أغلق الخطّ برفق. الإيمان لا يعارض الدواء، لكنّه لا يُوزَّع في الصيدليات. أرتّب شعري بعجلة، أرتدي معطفًا يليق بامرأةٍ تتظاهر بأنها مشغولة عن نفسها، وأخرج.

في الشارع، أشعر أن الأرض تكتب خطواتي بالرصاص، لا بالرصيف. كلّ خطوةٍ ثِقَلٌ صغير. الحبوب تجعل الأشياء قابلةً للتحمّل، لكنها لا تُعيد للسماء زُرقتها الكاملة. أحاولُ أن أتذكّر متى رأيتُ زرقةً بلا شائبة. ربما في صباي عندما كان المطر يصدّقنا.

أصلُ إلى العيادة. باب زجاجيّ يلمع مثل سطرٍ نافر. أخذُ نفَسًا طويلًا، أسمع الجرس، وأدخل.

الفصل الثاني: الغياب كوجهٍ آخر

غرفة الانتظار

غرفة الانتظار لا تنتظرنا؛ نحن الذين ننتظرها. على الجدران لوحات طبيعية لبحيرات بعيدة لا يمكن دخولها. كرسيّان فارغان وكهلٌ يقرأ من مصحفٍ صغير، يحرّك شفتيه كطائرٍ يخشى كسر الهواء.

أجلس. أعصر حقيبتي بيديّ، كمن يقبض على الليل كي لا يتسرّب.

الممرّ ضيّقٌ كأسرارنا. تخرج ممرضة وتقول اسمي وكأنّه نداء صلاة: "ليان؟ تفضّلي."

أدخل.

سامر ينهض عن مكتبه بلا عجلة. لا يحاول أن يبدو طبيبًا أكثر مما هو. قامتُه الهادئة تضع توازنًا في الغرفة. عيونه تنصتُ قبل أن تسأل.

— "كيف حالكِ اليوم؟"

— "ملّاح... كما يقول البحّار إذا لم يجد ميناء."

يرسم ابتسامةً قصيرة:

— "هل غيّرتِ الجرعة؟"

— "لم أغيّر شيئًا. الحبّة تغيّرني."

أتأمل يديه وهما تقلبان الملفّ: أوراقٌ عنّي تعرف منّي أكثر مما أعرف. يسألني عن النوم وعن الشهية وعن فكرةٍ سوداء دخلت رأسي أمس ونامت.

أقول: "الفكرة السوداء تستيقظ قبلي. تجلس على صدري وتحصي أنفاسي. لكنني أعدُّ المطرَ بدلًا منها، فأحيا."

— "المطر لا يهطل كل يوم."

— "لهذا أحبه."

يطلبُ منّي أن أكتب سطرًا واحدًا كل صباح، سطرًا أصف فيه نفسي بلا زينةٍ ولا لعنات. "سمّي هذا تمرينًا بسيطًا،" يقول، "لا تعهّدًا للفرح."

أومئ. أشعر أن كلامه يسقط على الطاولة كحصىً في بحيرة. دوائر هادئة تتّسع.

قبل أن أخرج، يسألني عن الغائب.

أصمت.

— "هل ما زال يزوركِ؟"

— "لا يزور، يا دكتور. الغياب لا يزور، الغياب يسكن."

يكتب ملاحظةً صغيرة. ينظر إليّ بعينين لا تحملان حكمًا. يقول:
"سننصت له، لا نحاربه. الحروبُ تزيد عدد الموتى، لا عدد الأصدقاء."

أخرج من العيادة، وفي قلبي نافذةٌ طازجة. في الشارع، أرى فتاةً تضحك مع ظلّها على الرصيف. أفكّر: كم ظلًّا نحتاج كي لا ننكسر؟

الفصل الثالث:

صندوق الدرج

في البيت، أفتح الدرج الذي اعتاد أن يخزّن أعيادي المؤجلة. دفاتر صغيرة، أشرطة حرير، ورائحة ورقٍ قديم يستيقظ إذا تنفّستِ بقربه.

أبحث عن الرسائل التي لم أرسلها. رسائل للهواء، للبحر، لامرأةٍ كنتُها ولم أعد. أجد واحدةً تحمل تاريخًا يتيما. أقرأ:

"إلى من سيجيء يومًا،

لا تعرف اسمي وسأعرفك من طريقة مشيك على صمتي.

إن وصلتَ متأخرًا، ضع يدك على بابي واعتذر للريح.

لقد علّمتها أن تنتظرك."

أبتسم. أضع الرسالة قرب قلبي، ثم أعيدها حيث كانت: إلى حرفٍ لا يذهب

تمتدّ يد الغائب من وراء كتفي كظلّ مسالم: "لن يجيءَ أحدُنا كاملًا، يا ليان. نحن نكملنا بما ينقصنا."

أجيبه وأنا أرتّب الدرج: "الحبّ ليس جبرًا، الحبّ مساحةٌ تقبل الكسر وتحبّه."

أتذكّر نعش حبّ قديم مرّ أمامي ذات سنةٍ ولم أبكِ. كنتُ في مقهى على ناصية الذهب، والقهوة توشّح شفتي بمرارةٍ تشبه الشعر. رأيتُ الرجل

الذي ظننته خلاصًا يمشي إلى امرأةٍ أخرى وهو يبتسم بعينيه. منذ ذلك اليوم، تعلّمت أن الابتسامة سلاحٌ أبيض.

أغلق الدرج على هسيسٍ دافئ. أضع الحبّة على اللسان، وأشرب ماءً، وأقول لنفسي: "سنتعلّم طريقةً جديدة للمشي داخل أنفسنا."

الفصل الرابع:

نوافذ نور

نور تدخل كالاسم الذي تحمله. تطرق الباب ثلاث طرَقاتٍ وكأنها تلعب بإيقاع القلب.

— "افتحي يا ليان، جئتُ بالسماء ملفوفة!"

أضحك وأنا أفتح. تحمل لوحةً مبتلّة الألوان، نارًا وبحرًا في إطارٍ واحد.

— "رسمتُكِ البارحة."

— "وأنا كنتُ أراكِ وأنا لا أنام."

تضع اللوحة على الحائط المقابل للمرآة المغطّاة. تقول: "أريد لونًا يعلّقكِ في الهواء، تشعرين أنكِ خفيفةٌ وواقفةٌ في آن."

— "هل نحتاج للونٍ كي نقف؟"

— "نحتاج لسببٍ كي نسقط بأناقة، ولونٍ كي يقوم السقوط شاهداً."

نجلس. نحضّر شايًا بنعناعٍ يذكرني بجدّتي. تخبرني نور عن معرضها القادم. تسألني عن القصيدة التي وعدتها بها.

— "أكتبُ الآن رواية لا تريد أن تنتهي."

— "جميل. الرواية حياةٌ بملحٍ زائد."

نفتح نافذة الكلمات على مصراعيها. أخبرها عن التمرين الصباحي الذي طلبه سامر. تضحك: "أنا أيضًا أكتبُ سطرًا كل صباح: ما الذي أنقذكِ البارحة؟"

أفكّر قليلًا. أقول: "فنجان ماءٍ شربته بعد بكاءٍ طويل."

— "هذا عنوان لوحة."

قبل أن تخرج، ترفع الشال عن المرآة لحظة.

— "انظري."

أرى امرأةً تشبهني. أجملَ بقليلٍ لأنّ نورًا واقفةٌ خلفي.

— "أعيدي الشال."

تعيدهُ بحنوّ: "سيأتي يومٌ تزيحينَه بنفسك."

الفصل الخامس:

مذبح المرآة

في الليل، المرآة تصير مذبحًا صغيرًا. أضع أمامها كأس ماء وبعض الورد اليابس. أقتربُ كمن يقدّم قربانًا. أتذكّر نساء المرايا اللواتي يسلّمن وجوههن للانعكاس مثل طيورٍ على الأسلاك.

أرفع الشال.

وجهي يخرج من الماء البعيد. عيناي أخفّ، فمي أقلّ إصرارًا على الصمت. أتدرّب على قول اسمي بصوتٍ مسموع: "أنا ليان." يتردّد الاسم في الغرفة كحَكَمٍ يحسم مباراةً طويلة.

يظهر الغائب في الزجاج. هذه المرّة له ملامح بلا اسم. يدنو كجملةٍ ناقصة تنتظر فعلها.

— "هل تسمحين لي أن أسكن هذا الوجه؟"

— "لا. يمكنك أن تسكن ظله."

— "والظلّ؟"

— "الظلّ مساحةٌ آمنة لمن لا يكملون الحضور."

ألمسُ الخدَّ بإصبعين. أشعر برقّةٍ غير معلّمة. أتذكّر أن جسدي ليس عدوّي، وأن الحبوب ليست عكازي بل مفكّرةٌ كيميائية تضبط ارتجافات الداخل.

أكتب على البخار: الغياب لا يغلب المرآة، المرآة تغلّف الغياب برؤيةٍ قابلةٍ للعيش.

أعيد الشال. أتناول الحبّة المسائية. أستلقي، وأُصغي إلى الموسيقى التي يعزفها قلبي حين يرضى عن نفسه قليلًا

الفصل السادس:

دفتر القلق

المساء يهبط على البيت مثل بطّانيةٍ ثقيلة. أمي ترفع صوت التلفاز فوق همس الصحون. الأخبارُ حطامٌ متحرك: وجوهٌ متعبة، أرقامٌ تبكي دون دموع، ومذيعةٌ جميلة تتقن ترتيب الخراب في جملٍ نظيفة.

أجلسُ قربها. تمدُّ لي كوب شاي:

— "اشربي. الشاي يهدّئ."

— "والأسماء؟"

تلتفت كمن أخطأ في الاستماع:

— "أي أسماء؟"

— "الأسماء التي نحملها معنا إلى النوم كي لا نضيع."

تتحرّك يدها نحو جهاز التحكّم. تخفّض الصوت وتضعه على الطاولة كما يضع القاضي المطرقة.

— "الناس يسألون عنك. لماذا لا تتزوجين؟ لماذا لا تعملين في مدرسة مثل بنت خالتك؟ لماذا...؟"

أبتسم كي لا ينكسر الهواء بيننا.

— "الناس يحبّون الأسئلة التي لا تخصّهم."

— "أنا لا أحتمل نظراتهم."

— "أحملي نظرتكِ أنتِ، ودعي لهم عيونهم."

تنهض إلى المطبخ، تعود بوعاء حساء: "كُلي ليهدأ رأسك."

أمدّ يدي إلى الملعقة وأصابعي ترتجف قليلاً. تقول: "كفّي عن تلك الحبوب. شو بدها تعمل؟"

أضع الملعقة، أنظر في وجهها: "الحبّة لا تمنع قلقي، لكنها تعلّمه الجلوس."

تتنهد. تدير وجهها إلى التلفاز كما لو أنه جدارٌ تستند إليه.

أفتح دفتري الصغير. أكتب سطر التمرين الصباحي متأخرًا: اليومُ قاسٍ، لكنّي لم أسقط.

تقترب لتقرأ. أمحو السطر بإصبعي قبل أن تكمله. "غدًا أكتبه لكِ بخطٍ أجمل."

في الممرّ، باب غرفتي موارب. أضع كفّي على الخشب وأصغي، كأنّ وراءه بحرًا صغيرًا.

من عمق البيت يصلني صدى خطوات أمي وهي تجمع الصحون. أقول لنفسي: سنحبّ بعضنا بطريقةٍ لا تؤذي أحدًا.

أدخل الغرفة، أغلق الباب. أفتح الدرج. الحبّة تنتظرني كالاعتراف الأخير. أبتلعها مع رشفة ماء، وأطفئ الضوء إلا من خيطٍ رقيقٍ يلمع على صفحات دفتر القلق.

الفصل السابع:

تمرين تنفّس

الصباحُ هشّ مثل قشرة خبزٍ طازجة. أجلسُ على طرف السرير وقدماي على الأرض كجذورٍ صغيرة تبحث عن ماء.

خمسة أنفاسٍ عميقة كما أوصاني سامر. أعدّها على أصابعي. في الثالثة، يمرُّ وجه الغائب كغيمةٍ هادئة؛ في الرابعة يصبح خفيفًا، في الخامسة يتلاشى دون جراح.

أفتح النافذة. أسمّي الأشياء: هذا كرسيّ، هذه شجرة، هذا ظلّ، وهذه ليان. التسمية لا تملك سحرًا، لكنها تمنع الفوضى من أن تدّعي الأمومة.

أكتب سطر التمرين: أنا هنا، لا أكثر ولا أقل.

أقرأه بصوتٍ منخفض وكأنني أعلّق لوحة. السطر لا يبدو حكيمًا، لكنه قائمٌ على قدميه.

أذهب إلى المطبخ. أغلي الماء وأتركه يغنّي قليلاً قبل أن يصير شايًا. أضع كوبين، ثم أتذكّر أنّ أمي ما زالت نائمة.

على الطاولة حبّةٌ لليوم. ألمسها بطرف إصبعي. أشعر أن سطحها البارد يحفظ حرارةً غير مرئية.

أتذكّر كلام سامر: “لا تحوّلي الدواء إلى بطلٍ خارق. البطولات تحبُّ الموت المبكر.”

أضحك وحدي. أخلط الشاي بالنعناع، أشرب رشفة. في فمي طعمٌ من مقهى قديم.

أعود إلى النافذة. حمامةٌ تقف على حافة السطح المقابل، ترفع رأسها نحو الشمس.

أهمس: "اسمُكِ اليوم: سلام." ثم أضيف: "واسمِي: قابلة للعيش."

أرتدي معطفي. أكتب ورقة صغيرة للصقها على المرآة: إذا مرّ الغياب، قدّمي له ماءً وكرسيًّا، ولا تتحدّثي طويلًا.

أغلق الدفتر. أضع الحبّة في جيبي كتعويذةٍ بيضاء، وأخرج إلى يومٍ أقلّ حدّة.

الفصل الثامن:

درج العمارة

الدرجُ الباهتُ في عمارتنا يحبّ الظهر. في هذا الوقت، ينسى ظلال السكان ويحتفظ بخطواتهم فقط.

أحمل كيس قمامةٍ صغيرًا. في الطابق الثاني، ألتقي بالجّار العجوز الذي يشبه شجرته في الساحة الخلفية. يحمل سلّة ليمونٍ بيده اليمنى وعصاه باليسرى.

— "صباح الخير يا بنتي."

— "صباح النور، عمّو."

يقف على السلّم ليترك لي الممرّ. ثم يمدّ لي ثمرة ليمون: “من الشجرة نفسها. خذي. للبيت الذي فيه ليمون، المرضُ يحسب حسابه.”

آخذ الثمرة. رائحتها تشبه رائحة يدٍ كانت تزرع وتنتظر.

— “كيفكِ؟” يسأل وكأنه يقول: هل يعزف قلبك اليوم أم يستريح؟

— “أتعلم يا عمّو... أنا مثل شجرة الليمون: تبدو ثابتة ومليئة، لكنها تحتاج يدًا تُخرج منها العصير.”

يهزّ رأسه ويبتسم: “اليد موجودة يا بنتي. أحيانًا تكون هي يدنا نحن.”

ينزل الدرَج ببطءٍ وتؤنسه عصاه. أفكّر: اليد التي تمتدّ بلا سيرة ذاتية هي معجزةٌ صغيرة.

في الخارج، الشمس تقطّع الوقت إلى شرائح لطيفة. أضع الليمونة في جيبي الآخر، تقابل الحبّة البيضاء ككوكبين صغيرين.

أرمي الكيس، وأعود لأصعد. في كل درجةٍ أخفّ قليلاً، كأنّ الحصى تسقط من روحي حجرًا حجرًا.

عند باب البيت، أستدير لحظة. أرى العجوز يلوّح من بعيد. ألوّح له الليمونة. تضحك السماء بخفر.

الفصل التاسع:

مطر على المائدة

نور جاءت ومعها لوحةٌ جديدة: أمواجٌ داكنة يتسلّقها قمرٌ نحيل.

— “هذا وجهُكِ عندما تسمّين الأشياء.”

— “وهذا قمرُكِ عندما يخفُّ الحمل.”

نفرش مفرشًا قطنيًا على الطاولة. تضع الألوان والفرش. تقول: "سنأكل اليوم حساء الألوان."

أضحك. أعدّ شايًا. أضع الليمونة التي أعطاني إيّاها الجار في وسط الطاولة كتميمة.

— "كيف حال تمرينكِ؟"

— "سطرٌ كل صباح. اليوم قلت: أنا هنا."

— "وأين كنتِ قبلها؟"

— "في اسمٍ لا يخصّني."

تسحب نور كرسيًّا وتقعد قبالتي: "احكي عن الرجل الذي لا اسم له."

أخفض صوتي: "إنه لا يدخل من الباب. يخرج من المرآة. يمشي على طرف حلمي ثم يجلس على حافة سريري."

— "الحبّ؟"

— "الغياب."

— "والفرق؟"

— "الحبّ يعود بلا موعد، الغياب يقيم بلا عقد."

نصمت قليلًا. في الخارج تتلبّد السماء. أول قطرة تسقط على الشرفة كطرقٍ ناعم. ثم الثانية. ثم حشدٌ صغير يعلن بدء صلاة المطر.

نفتح النافذة. يدخل الهواء مبتلًّا.

تقول نور: "اسمي هذا المطر: تذكُّر."

أردّ: "وأسمّي هذه اللحظة: قابلةٌ للحبّ."

نضحك. ترفع الليمونة وتدورها في الهواء كقمرٍ أصفر. "لوحةٌ جديدة،" تقول، "عنوانها: مطرٌ على المائدة."

أحاول أن أنطق اسمًا للغائب. تتعثّر الحروف على لساني. أضع أصابعي على شفتيّ وأفكّر: ربما لا يحتاج الاسم إلى صوت. يكفيه أن يمرّ مثل ظلٍّ وديع.

تغلق نور الألوان وتضمّني. تقول قبل أن تغادر: "إذا جاء الليل ثقيلًا، اشربي نصف ليمونةٍ مع ماء. للمرارة استعمالاتٌ نبيلة."

أقف عند الباب أراقب المطر وهو يكتب ملاحظاته على الإسفلت. أشعر أن قلبي يتعلّم قراءة بخطٍّ جديد.

الفصل العاشر:

الحبّة التي تبتسم

صباحٌ بنبرةٍ منخفضة. أفتح عينيّ على رائحة قميصٍ نظيف ونافذةٍ لم تعد تخاف الضوء.

أذهب إلى المطبخ. أعصر نصف الليمونة في كوب ماء فاتر. المرارة تعبر حلقي مثل حكمةٍ قصيرة.

أفتح الدفتر. أكتب: السطر اليومي: نجوتُ لأنني تنفّست. ثم أضيف بخطٍ أصغر: ولأن المطر تذكّرني.

ألتقط الحبّة من العلبة. أرفعها في الهواء. لا أعرف لماذا تبدو كمن يبتسم لي.

أبتلعها مع جرعة ماء. هذه المرّة لا أشعر أنني أختفي، بل أنّ شيئًا صغيرًا يفسح لي مكانًا.

أكتب رسالة قصيرة لسامر: "جربتُ التسمية. خمسُ أنفاسٍ وسطر. الغياب يجلس على كرسيّ ويصمت أحيانًا."

أرسل الرسالة. أضع الهاتف جانبًا.

في الممرّ، أرفع الشال عن المرآة. وجهي يقترب كمن عاد من سفرٍ قصير.

— “صباح الخير يا ليان.”

— “صباح الخير يا أنتِ.”

لا يظهر الغائب. ربما يجلس في ظلّ الكرسي كما اتفقنا.

أرتدي معطفي، أفتح الباب. درج العمارة يستقبلني بلا ضوضاء.

في جيبي نصفُ ليمونةٍ أخرى. في الجيب المقابل دفترٌ صغير. بينهما، في مكانٍ لا مرئي، الحبّة التي تبتسم.

أمشي إلى النهار بخفّةٍ غير متفق عليها. الهواء يتّسع وخطوتي لا تخاف.

أقول لنفسي وأنا أنزل الدرَج: ليس الشفاء وعدًا، إنه عادةٌ جديدة.

وأضيف: والغياب، عندما يجد كرسيًّا وماءً، يتعلّم الأدب.

الفصل السابع:

عودة المطر إلى اللغة

أستيقظ قبل الفجر بقليل. ليس من أجل صلاة محدّدة، بل من أجل تلك اللحظة التي تقف فيها اللغة على رؤوس أصابعها لتطلّ على الليل.

أُضيء مصباح المكتب. أضع كوب ماء. أفتح الدفتر على صفحةٍ بيضاء تشبه بابًا بلا مقبض.

القلم يمشي أولًا بتعثّر طفلٍ يبدأ نُطقه:

تعليمات مؤقتة للنجاة:

(1) ماءٌ قريب: عندما يشتدّ الكلام في الرأس، اشربي.

(2) كرسيّ للغياب: لا تقتليه ولا تُطعميه من قلبك.

(3) اسمٌ واحد واضح: ليان، ليان، ليان.

أرفع رأسي. الظلّ يجلس في مكانه، لا يمدّ يده إلى الورقة. أشكره بصمتٍ، وأواصل:

(4) تنفّسٌ مثقّب: خذي هواءً من جهةٍ لا يعرفها الخوف.

(5) كلمةٌ صغيرة: اليوم... يكفي

اللغة تمطر. تنزل الجُمل مثل قطراتٍ دقيقة لا تكسّر الزجاج. تغسل درج الذاكرة من رائحة العفن القديمة: ذلك الصوت الذي كان يقول لي وأنا طفلة "كوني هادئة كي لا تبكي أمّك"، تلك المرآة المدرسية التي حفظت وجهي وهو يعتذر للعالم لأنه موجود، تلك المرة التي صفقوا فيها لنجاحي وأنا كنتُ أريد أن أنام.

أكتب للنهاية جملةً أخيرة: إن لم تجدي خلاصًا، خذي نصف ليمونةٍ واذهبي إلى النافذة. المرارة تعرّفكِ بنفسكِ أسرع من السكّر.

أغلِق الدفتر. أفتح النافذة. الفجر يضع يده على كتف المدينة ويقول لها: "قومي".

أهمس لمرآتي: "أنا أقوم."

وفي الكرسي، الظلّ يطأطئ رأسه كمن يبارك بدايةً لا نعرف نهايتها.

الفصل الثامن:

زيارة غير متوقعة

قالت أمي فجأةً وهي ترتّب غرتي: "بدي أجي معِك اليوم على العيادة."

لم أسأل لماذا. كانت في عينها رغبةٌ قديمةٌ في أن تفهم بطريقةٍ لا تجلد.

في غرفة الانتظار جلست إلى جواري، وضعت حقيبتها على ركبتها كما لو أنها تمسك الزمن كي لا يفلت. نظرتُ إلى يدها، تلك اليد التي ربّتني وبّختني وأطعمتني وبكت مني وعليّ.

فتحت الممرضة الباب. دخلنا.

جلس سامر هادئًا كعادته. حيّا أمي باحترامٍ خالٍ من ادّعاء.

قالت أمي وهي تلمس طرف ثوبها: "دكتور... بنتي طيّبة. بس هاي الحبوب... أنا بخاف."

تنفّس سامر، ثم قال بلطف: "القلقُ على ابنتكِ طيبةٌ أيضًا. لكن دَعينا نسمّي الأمور: ما تعيشه ليان ليس دلالًا ولا ضعفًا. إنه اضطرابٌ كيميائيّ ونفسيّ نُمشيه معًا: دواء، وتمارين، وحياة."

أمّي هزّت رأسها كمن يسمع لغةً لا يجيدها لكنه يقدّر موسيقاها.

أضاف سامر: "نحن لا نبحث عن الكمال. نبحث عن استقرارٍ مرن. يومٌ جيّد، يومٌ أقلّ. المهمّ أن تبقى الجسور قائمة."

التفتتْ إليّ أمي، وفي عينها ماءٌ لم أرَه على هذا الشكل من قبل. قالت بصوتٍ خافت: "سامحيني إذا قلتُ كلامًا وجعكِ. أنا كنتُ خايفة عليهم... الناس."

وضعتُ يدي على يدها: "أنا أيضًا كنتُ أخاف عليهم يا أمّي. الآن نتعلّم نخاف علينا قليلًا."

لم تبكِ كثيرًا. دمعتان فقط، لكنّهما فتحتا نافذةً في البيت.

خرجنا. في الطريق اشترت لي أمي رغيفًا ساخنًا. قطعناه نصفين ومشينا.

قالت وهي تبتسم: "بدكِ ليمون؟"

ضحكنا معًا.

وخلف النافذة الزجاجية لعيادةٍ من دون أسرار، رأيت ظلّي واثقًا وهو يصافح ظلّها.

الفصل التاسع:

ممر الهواجس

في الليل، لا شيء دراميّ. ارتعاشٌ خفيف يبدأ من اليد اليمنى، يسافر إلى كتفي، ثم يقف مثل عاملٍ مُجهدٍ على باب القلب.

أسمع همسًا قديمًا يريد أن يستيقظ: "ليان؟"

لا أجيبه. أذهب إلى المطبخ. أملأ كوب ماء. أعصر نصف ليمونةٍ وأضيف قطرتين من عسلٍ لا يريد أن يبدو بطلاً.

أضع الكوب على الطاولة بجوار الكرسي الفارغ. أفتح النافذة. الهواء البارد يضع على جبهتي ضمادةً لا تُرى.

أبدأ طقس التسمية:

— هذه طاولة.

— هذا كوب.

— هذا ليلٌ قابلٌ للعبور.

— وهذا خوفٌ ينسى أحذيته عند الباب.

أجلس. أتنفّس خمس مرات. أكتب سطرًا: أنا لستُ بخيرٍ تمامًا، لكنني لستُ وحدي.

أتّصل بنور: "احكي معي خمس دقايق."

تضحك نور: "خمس دقائق نعملهن عرضًا مسرحيًا!" ثم تسأل: "شو في؟"

أقول: "ارتجاف خفيف."

تجيب: "خليه يرقص لحالو، لا تصفّقي."

أغلق الهاتف. أطفئ ضوء الصالة وأترك ضوء الممرّ مُضاءً. أصواتٌ بعيدة تتدلّى من سقف الذاكرة، لكنّها لا تجرؤ على المشي.

أضمّ الدفتر إلى صدري كأنني أحضن طفلةً تنام.

الذعر يقبل الهدنة.

أنام أخيرًا، وبين أصابعي أثرٌ خفيفٌ من الليمون.

الفصل العاشر:

رسالة لم تُرسل

في الصباح، أعرف أن الليلَ علّمني شيئًا. أقف أمام الطاولة، وأكتب رسالةً إلى «الغائب»:

يا ظلي الذي تعلّم الأدب،

لستَ عدُوّي ولا حبيبي. أنتَ مساحةٌ بينهما،

يختبر فيها القلبُ طريقتَه في البقاء.

لن أُطعمك من جسدي، ولن أفتّش عنك في الوجوه.

لك كرسيّ وماء، ولي بابٌ يفتح حين أشاء.

إذا رغبتَ في الكلام، فليكن همسًا لا يحجب النافذة.

وإذا رغبتَ في الرحيل، اترك على الكرسيّ زهرةً صغيرة كي أعرف أنكَ مررت.

أقرأ الرسالة بصوتٍ مسموع. لا يرجّف الصوتُ الهواء. الكلمات تمشي على الأرض كما تمشي القطط: رشيقةً واثقةً بلا ضوضاء.

أطوي الورقة وأضعها في الدرج.

ألتفت إلى الكرسيّ: ظلّك أصغر قليلًا اليوم. جميلةٌ هذه الخسارات التي لا تؤذي أحدًا.

الفصل الحادي عشر:

نافذة على اسمٍ مستحيل

عند مدخل العمارة، أكياسُ خضار ثقيلة قطعتها الريح من يدي. انفرط التفاح، تدحرجت الحبات على الدرج مثل ضحكٍ لم يجد فمًا.

ظهر شابٌّ يحمل سلّة خشبية. ملامحه تُشبه الليمونة في نضارتها، وفي عينيه ظلٌّ خفيفٌ لا يشبه الغائب.

— "اسمحيلي أساعد."

لم أنتبه أنني قلت "شكرًا" بصوتٍ فيه شيءٌ من الطفلة.

جمعنا التفاح. قال وهو يلتقط آخر حبة: "أبي يبعت سلام. سأل عنك أمس."

— "الله يسلّمه. ليمونته صارت تميمة عندي."

ابتسم: "هو بيقول: في كل بيت شجرةٌ صغيرة لو انتبهنا. أنا اسمي يوسف."

توقّفت لحظةً عند الاسم. ليس غريبًا ولا مستحيلًا. اسمٌ من ماء.

— "أنا ليان."

— "بعرف." ثم أضاف وهو يضع الأكياس على العتبة: "إذا احتجتِ شي، الطابق الرابع، الباب اللي عليه قطة مرسومة."

هزّ رأسه وعدا بخفّة السلال.

صعدتُ الدرج وأنا أعدّ الخطوات لا خوفًا بل لفرحٍ صغيرٍ يشبه العدّ على أصابع الأغنية.

في البيت، وضعت الأكياس على الطاولة، وكتبت في الدفتر: الأسماء التي تأتي من ماءٍ لا تؤذي.

نظرت إلى الكرسيّ. ظلّك لم يغادر، لكنه بدا موافقًا على نافذةٍ جديدة مفتوحة على اسمٍ إنسانيّ لا يطارد.

الفصل الثاني عشر:

اتساع الكرسي

المساء يحمل هدوءًا مبتسمًا. أعدّت أمي حساء عدسٍ بالكمون، تركته على النار حتى صار للبيت قلبٌ دافئ. وضعت الطبق أمامي وهمست: "كُلي... وبلا ما تفكّري كثير."

قلت لها وأنا أقبّل يدها: "شكراً لأنكِ فكّرتِ عنّي قليلاً اليوم."

اتصل سامر: "كيف حال الاستقرار المرن؟"

قلت: "مثل قاربٍ صغير يعرف أين يجلس في الماء."

ضحك: "هذا تعريفٌ مسروق من البحر."

قلت: "كلنا لصوصُ نجاة."

جاءت نور ومعها لوحةٌ صغيرة: كرسيٌّ خشبيّ وعلى مقعده زهرةٌ بيضاء في كأس ماء. علّقناها فوق الكرسي الحقيقي. قالت: "هيك يصير الظلّ خفيف."

أومأت. وضعت كوب ماءٍ جديدًا.

أخرجتُ الدفتر وكتبت سطر اليوم: أنا لا أشفى، أنا أعيش أحسن.

ثم أضفت: ولكلّ غيابٍ كرسيّ، ولكلّ قلبٍ باب.

فتحت النافذة. السماء طرّزت حافتها الأولى بسُحبٍ صافيةٍ تقترح مطرًا قريبًا.

أشعلت أمي شمعةً صغيرة على الطاولة، كأنها تقول للبيت: "لا تخف من الليل، معي ضوء."

جلستُ. الكرسيّ اتّسع. الماءُ يلمع. الزهرة تنحني بلا ألم.

في مكانٍ لا تراه العين، تحرّك الظلُّ قليلًا ليترك لي مساحةً إضافية للجلوس.

أغمضتُ عينيّ، وقلتُ لنفسي: "هذا يكفي الليلة."

وعندما فتحتُهما، كان النهار قد وقف خلف النافذة يستأذن بالدخول

الفصل الثالث المعبد المكسور

الفصل الأول:

صدعٌ في الجدار

المساء يمشي على أطراف أصابعه. البيت يحفظ أنفاسه كي لا يوقظ ما استراح.

أغلق النافذة وأرفع الكرسي قليلًا إلى الداخل. يرنّ الهاتف: رقم المستشفى. قلبي يقف لحظةً على حافة.

صوتٌ رسميّ: “لا تقلقي، فحصُ أمكِ الروتينيّ بحاجة لإعادة غدًا صباحًا.”

كلمة «إعادة» تتسلّل مثل سحابةٍ باردة إلى صدري. أعقد الحاجبين على خبرٍ لا يريد أن يكبر، لكن صمت البيت يكبّره.

أُعدّ ماءً بليمون. أضع الكوب قرب الكرسي. الظلّ يستقيم متنبّهًا مثل كلبٍ يرفع أذنه.

أكتب: الخبرُ صغير. خوفي كبير. لنعادل القياسين.

خمسة أنفاس. في الثالثة يعود وجعٌ قديم يشبه صوت باب المدرسة حين يغلق مبكّرًا. أقول له: “هذا بيتٌ لا يُغلق على الخائفين.”

أنظر إلى الجدار فوق الطاولة؛ شعرُ طلاءٍ رقيقٌ تشرّب رطوبة الشتاء فصار عِرْقًا أبيض. صدعٌ صغير، لكنه يلمع.

ألمسه بأطراف أصابعي. أفكّر: الكسور ليست إعلانَ انهيار، بل شقوقُ ضوءٍ تبحث عن اسمها.

أختم السطر: سأمشي مع الصدع، لا ضده.

الفصل الثاني:

سُلّم إلى الداخل

جلسة سامر قصيرة الليلة، لكنها ممتلئة الهواء.

أخبره باتصال المستشفى. يضع القلم. يقول: “نحتاج سُلّمًا واضحًا للأيام التي تتوتّر فجأة.”

يكتب على بطاقةٍ صغيرة ويسلّمني إيّاها:

معدات النجاة: ماء، تنفّس 5×2، تسمية الأشياء.

اتصالٌ واحد: نور أو سامر — لا عزلة.

إجراء ملموس: مشي لعشر دقائق، ترتيب رفّ، تحضير حساء.

“ثلاث درجات،” يقول. “إذا علقتِ في واحدة، ابقي هناك حتى تثبتي، ثم اصعدي التالية.”

— “وماذا عن صلاةٍ صغيرة؟”

— “أضيفيها حيث تشائين. المهمّ أن لا تتحوّلي إلى قاضيةٍ على نفسكِ.”

أغادر العيادة والبطاقة في جيبي الداخليّ. تلمسها راحتي كمن يمسك بوصلة.

في الطريق، أسمّي الأشجار: هذه تنتظر مارس، وهذه تصدّق الخريف أكثر من اللازم.

أبتسم. السُلّم لا يقصر الطريق، لكنه يمنع السقوط المباشر.

الفصل الثالث:

متحف الشظايا

قرّرتُ أن أرتّب «متحف الشظايا» على رفٍّ واحد.

وضعت الشال الأزرق الذي يغطّي المرآة — ليس كسترٍ هذه المرّة، بل كتذكارٍ لمرحلة.

إلى جواره نصفُ ليمونةٍ جفّت وصارت نجمةً صغيرة من قشرٍ أصفر، لا تزال تفوح بذكرى.

الكأسُ الذي حمل ماء الظلّ في ليالٍ كثيرة. الورقة التي لم أرسلها إلى الغائب. بطاقة السُلّم من سامر.

أعلّق فوقها لوحة نور: كرسيّ وفيه زهرة.

أسميها بصوتٍ مسموع: "هذه شظاياي الجميلة."

المتحف لا يشيطن كسرًا، ولا يقدّس ألمًا. يضعهما على الرفّ كي لا يتحكّما في الغرفة.

أجلس على الأرض. أستلقي قليلًا كطفلةٍ في متحفٍ لا يمنع اللمس.

الظلّ يمرّ فوق السقف مثل سحابةٍ رقيقة.

أهمس: "ابقَ خفيفًا."

الفصل الرابع:

صوتٌ يشبه المطر

الليل واضحٌ هذه المرّة. لا مشاهد إضافية.

أجلس قبالة الكرسي. أسأل الظلّ: "ما المسافة بين حنينٍ نظيفٍ وإدمانٍ أنيق؟"

لا يجيب، لكن الماء في الكأس يردّ بأثرٍ دوائرٍ تتهامس: مسافة كوب.

أضحك. أفهم الدرس: لا تحوّليني إلى أغنيةٍ تكرّرينها حتى تنامي.

أكتب: الحنين أغنية مرة في الأسبوع. الإدمان أغنية كل ساعة.

أضيف: عندما يشتدّ الحنين، افتحي نافذةً واقرئي اسمكِ ثلاثًا ثم اسكتي.

أغلق الدفتر. المطر يبدأ برفقٍ يليق بمن يعود من سفرٍ بعيد.

أفكّر: كم مرّةً أنقذني صوتُ المطر لأنني لم أطالبَه بالمعجزات؟

أنام على هذه الفكرة كما ينام العصفور في راحة يدٍ موثوقة.

الفصل الخامس:

اسمٌ على الباب الرابع

عند مدخل العمارة، قطةٌ مرسومة على باب الطابق الرابع ترفع ذيلها كعلامة ترحيب. أبلّغ الجار العجوز سلامًا وتمنّيات بالصحّة. يخرج يوسف حاملاً سلّة خضار.

— "أبوي بيحكي عنكِ كثير، بيقول: البنات اللي بيحبّوا الليمون بيفهموا المطر."

— "وأنا بقول: اللي بيعرفوا يزرعوا شجرة بيعرفوا يربّوا صوتهم."

نقف عند الشرفة المشتركة. الهواء باردٌ بما يكفي لفرز الأفكار.

يسألني إن كنتُ أحتاج شيئًا من السوق. أقول: "تفاحتين ونعناعًا، إذا أمكن."

نضحك من بساطة الطلب. يذهب ويعود بكيستين صغيرتين. يحاول أن يعتذر عن الإلحاح.

— "أنا لستُ الشخص الذي تبحثين عنه،" يقول فجأةً، كأنه يقرأ سطرًا لم أكتبه بعد.

أبتسم: "وأنا لستُ الشخص الذي يظنّه ظلّي."

يصمت. يضع الكيسين على الدرابزين. "كافي أن نكون ناسًا طيّبين في السُلّم نفسه."

— "هذا كثير."

أعود إلى بيتي بخفّةٍ لا تشبه الرومانسية، بل تشبه اعتدال النبض.

أكتب: ليس كل اسمٍ على بابٍ يعني وعدًا. أحيانًا يعني: هواءٌ مشترك

الفصل السادس:

الطريق إلى المعبد

الطريق إلى القرية يشبه حبل سُرّةٍ ممتدًّا من الصدر إلى الأرض. كل منعطفٍ يذكّرني أنني لستُ منبتَّة الجذور، وأن الخوف لا يملك خريطةً حين نناديه باسمه.

نجلسُ، أنا وأمي، في باصٍ صغير يتنهّد عند كل صعودٍ كشيخٍ يسلّم على ذكرياته. تقول أمي وهي ترتّب طرف حجابها: “بيت ستي صاير بعيد.”

أردّ: “البيوت لا تبتعد يا أمّي، نحن نطيل الطريق حين نخاف.”

وصلنا قبيل العصر. بابٌ خشبيّ معشّقٌ بالمسامير السود، رائحته تجمع الزعتر القديم مع صابون الغار. في الداخل، سجّادة صلاةٍ باهتة، ومِسْبَحة معلّقة على مسمارٍ صدئ، وصندوق خشبيّ مليء بالصور.

تفتح أمي الصندوق كما لو أنها تفتح صدرها. تلتقط صورةً لامرأةٍ تعرفها أكثر من نفسها: جدّتي. في عينيها ماءٌ لم يُسمَّ يومًا.

تقول: “كانت ستي تصير ضيّقة فجأة. تقول: في حجر على صدري. يقرؤون عليها، تبكي ساعةً وتقوم تطبخ. ما حدّا سمّى الشيء.”

أمسك يد أمي. “نسمّيه الآن: خوف. قلق. نوبة موجة. لا شيطان ولا فضيحة.”

تسند أمي ظهرها إلى الجدار وتبكي بصوتٍ صغير، كأنها تُرجِع للبيت دينًا قديماً. “لم أعرف اسم الخوف، فحمّلته لكِ وأنا أظنني أحميكِ. سامحيني.”

أمسح دموعها بطرف كوفيّتي: “نتعلّم الآن أسماءنا الجديدة. ونشرب ماءً.”

أذهب إلى المطبخ الطينيّ، أملأ كأسين. نعود ونشرب قرب السجّادة. أقول: “هذا بيت. وهذا خوف. وهذا ماء. والبيت أوّل من يحتضن الماء إذا سمّينا الخوف.”

نصلّي ركعتين من غير كلامٍ طويل. على الحائط شقوقٌ رقيقة كأوردةٍ من نور. تقول أمي: “شوفي... مثل ما قلتي: الضوء بيطلع من الكسر.”

أبتسم. أضع في الصندوق ورقةً صغيرة كتبتُ عليها: الخوف ابنٌ للهواء... نعطيه كرسيًّا وماءً. ثم أغلق الصندوق برفقٍ يشبه وعدًا.

في طريق العودة، تمسك أمي يدي كما لم تفعل منذ أعوام. تقول: "بنتي... أنا اليوم أخفّ."

أجيب: "وأنا اليوم أثبت."

وتمضي الحافلة كصلاةٍ تتحرّك على أربع عجلات.

الفصل السابع:

مرآةٌ بلا شال

فتحتُ الستارة. النهار لا يحبُّ الاعتذارات. المرآة تواجهني بكامل عينها. لا شالَ اليوم.

أقفُ مترًا عنها، ثم نصف متر، ثم مسافة كفّ. أسمع قلبي يتهجّى اسمي كطفلٍ يتعلّم القراءة. أمدّ يدي وألمس زجاجها بطرف إصبعي. باردٌ كحكمةٍ لا تزعل من أحد.

أبدأ التسمية ببطءٍ يتّسع:

— هذه كتفٌ حملتني وأنا أهرب من أصواتٍ لا تُرى.

— هذه رقبةٌ تعلّمت أن تضع رأسها على الوسادة من غير دينٍ للدموع.

— هذه عينان رأتا الليل وهو يهدأ إذا أُعطي كرسيًّا.

— هذا فمٌ لم يخنّي حين احتجتُ أن أقول "لا".

— وهذه ليان... بيتٌ صالحٌ للسكن.

أتنفّس خمسًا. أرفع ذراعيَّ وتمدّدهما كما علّمني سامر: دائرةٌ صغيرة، ثم أكبر، حتى أفتح نافذةً في جسدي.

أشغّل موسيقى هادئة أرسلتها نور: وترٌ واحدٌ يظلّ يذكرني أن الوقوف ليس عقوبة.

أدنو قليلًا. أرى ندبةً صغيرة على ذقني نسيتُ حكايتها. أبتسم لها: "يا ندبتي، لستِ عيبًا. أنتِ إشعارٌ بالبقاء."

أجلسُ على حافة السرير وأكتب: اليوم أعدتُ المرآة إلى رتبتها: نافذة، لا قاضية.

ثم أرفع الكأس إلى فمي، وأشرب رشفةً تترك على لساني طعمَ بدايةٍ معقولة.

الفصل الثامن:

رسالة سامر إلى ليلةٍ صعبة

المساء معلّقٌ بين انتظارٍ وتفاؤلٍ حذر. نتائج فحص أمي غدًا. الهواء نفسه يشارك في الامتحان.

في الحادية عشرة، يبدأ جسدي يذكرني بطريقةٍ خشنةٍ قليلًا بأن الليل لا يخضع للخطط. أصابعي تبرد، أنفاسي تنكمش كطيورٍ على سلك.

أضع البطاقة التي كتبها سامر أمامي: معدات النجاة، اتصال واحد، إجراء ملموس.

المعدة الأولى: ماء. أعصر نصف ليمونة. أسمّي الأشياء: "هذا كوب. هذا ليلٌ عادي. هذه يدٌ قادرة."

الاتصال الواحد: أرسل رسالةً قصيرة لسامر: "ارتجاف خفيف. أطبق السُلّم."

لا تمرّ دقيقة حتى تأتيه رسالة صوتية:

“مرحبًا يا ليان.

أريدكِ أن تضعي يدكِ على صدركِ الآن، خمس مرّات... عدّي.

الاسم هو عهدك: ليان. ليان. ليان.

الليلة تعمل عملها. نحن لا نطلب منها بطولة. فقط المرور هادئًا.

إذا أردتِ، ضعي كرسيّكِ قرب النافذة، كأنكِ توَكّلين الليلَ على حراسة البيت.”

صوتُه لا يفرض بطولةً ولا يبشّر بنهايةٍ صاعقة. يمرّ كنسمةٍ تُعيد توزيع الأثاث في روحي.

3) الإجراء الملموس: أرتّب رفّ «متحف الشظايا». أمسح الشال الأزرق، أبدّل ماء الكأس، أضيف إلى البطاقة مشبكًا ذهبيًا صغيرًا كي لا تضيع.

أجلس. أتنفّس. أسمع من بعيد مواء قطةٍ تعرف الليل أكثر مني. أضحك من فكرةٍ عابرة: ربما القطط هي رسلُ السكينة ولا نعلم.

الارتجاف يهدأ إلى تموّجٍ يمكن ركوبه. أكتب: أنا لا أريد أن أنتصر على الليل... أريد أن أنام فيه.

الفصل التاسع:

عهد الندى

الفجر يأتي وفي يده صحنُ خبزٍ ساخن. أمي تُوقظ البيت برائحة الكمّون والخبز. نور تصل قبل الضوء بقليل، تحمل زهرةً بيضاء وكيس نعناع. بعد قليل، طرقةٌ خفيفة: يوسف يمرّ ليضع باقةً صغيرة على النافذة—“من الحديقة.”

لا أحد يرفع شعارات. كلنا نعرف أن اليوم يحمل انتظارًا، لكننا نُديره كفنجان قهوةٍ لا يغلي.

نجلس حول المائدة: خبز، زيت زيتون، زعتر، شاي. البخار يكتب خطوطًا على الزجاج تُشبه خطّي القديم.

تقول نور: "بِدّك عنوان للوحة الجديدة؟"

أجيب: "عهد الندى."

تضحك أمي: "أحلاهن هدنةُ الصبح."

يوسف يقول وهو يضع النعناع في الكوب: "الماء وحده يصبح شايًا إذا عُومل بحُسن."

نأكل بصمتٍ مريح. لا حديثًا عن نتيجةٍ لم تأتِ بعد. نتبادل نعمًا صغيرة: لقمةٌ لأمي من يدي، ضحكةٌ من نور، حركةُ رأسٍ من يوسف تقول: "هون... هون."

أكتب على الدفتر قبل أن نغادر: عهد جديد: لا نطالب الصباح بأكثر من ندىً يُبلّل أسماءنا.

وأضيف بخطٍّ أصغر: وإذا بخلَ الندى، نصنعه بماءٍ ونعناع.

الفصل العاشر:

المعبد المكسور... يضيء

الرسالة تصل عند الظهيرة: "النتائج مطمئنة. نعيد الفحص بعد أشهر للاطمئنان فقط."

تجلس أمي على الكرسي كمن عاد من حدّ سكين. تضع يدها على صدرها وتقول: "الحمد لله الذي يربّي قلوبنا باللطيف."

أعانقها طويلًا. لا دموعَ كبيرة، فقط رُطوبةُ عينين تعلمان معنى كلمة "كفاية".

أدخل غرفتي. أفتح «متحف الشظايا». أضيف بطاقة السُلّم الثلاثيّ إلى الرفّ، وأضع بجانبها حجرًا صغيرًا لامسناه أنا وأمي أمام بيت الجدّة. الحجر يحمل حرارة أصابعنا كوشمٍ طيّب.

أرفع الشال عن المرآة، ولا أعيده. المرآة ليست خصمًا اليوم، بل نافذةٌ تُعرّفني على امرأةٍ تعلّمت أن تضع كرسيًّا للغياب دون أن تسلّمه مفاتيح البيت.

على الكرسي كأس ماءٍ وزهرةٌ من لوحة نور. الظلّ موجود، لكنه صار مثل نقشٍ خفيفٍ على حافّة المزهرية.

أطفئ ضوء السقف، وأترك ضوء النافذة يعمل عمله.

أنظر إلى الجدار: الصدع الذي لمسته البارحة يلمع بخيوط ذهبٍ رقيقة، كما لو أن الشمس تتسرّب من شرايين المعنى.

أكتب السطر اليومي: لا أصلح كسري... أنيره.

ثم أضيف: المعبد المكسور يضيء لأن من فيه قرّر أن يسكنه لا أن يهرب منه.

أغلق الدفتر، أضع القلم فوقه كحارسٍ صغير.

أتنفّس خمسًا.

وعلى مهلٍ، يتّسع البيت حتى يشبه قلبي، ويتّسع قلبي حتى يشبه بيتًا يليق بنا جميعًا: أنا، وأمّي، ونور، ويوسف، وظلٌّ مؤدّب تعلم الفرق بين حنينٍ نظيفٍ وإدمانٍ أنيق

الجزء الرابع الحبة الأخيرة

الفصل الأول:

حبة تُماطل

اليوم تأخّرتُ. الساعة تجاوزت العاشرة، والحبة ما زالت على الطاولة.

أنظر إليها وكأنها ساعةٌ بيضاء لا تريد أن تدقّ.

أمي تسأل من المطبخ: "شربتِ دواءك؟"

أردّ بصوتٍ عادي: "بعد شوي."

أجلس أمام الدفتر. أكتب: أحيانًا أريد أن أعرف وجهي بلا هذه الحبة. هل أنا أكثر ضوءًا أم أكثر ارتباكًا؟

أراقب أصابعي. ارتجافٌ خفيف، ليس كارثة، لكنه يذكّرني أن الكرسي لا يزال هنا.

أمسك الكوب، أضع الحبة في فمي، أبتلعها مع جرعة ماء طويلة.

أفكر: المماطلة ليست رفضًا... إنها اختبار صغير: هل سأختار نفسي أم أنتظر انهياري؟

أكتب: اليوم اخترتُ نفسي متأخرة، لكنه اختيار على أي حال.

أغلق الدفتر. أبتسم للحبة الفارغة في الكوب: "صرتِ قصيدة قصيرة."

الفصل الثاني:

حوار على الشرفة

نور تجلس على الكرسي الخشبي، يوسف يقف مسنودًا إلى الدرابزين. أمي تحضّر شايًا بالنعناع.

السماء قريبة كأنها تريد المشاركة.

تقول نور: "أكثر ما يوجعني في اللوحات أنني لا أستطيع أن أضع فيها رائحة."

يوسف يضحك: "الرائحة عملُ الذاكرة، مش عمل اللون."

أردّ: "والذاكرة تكتب لوحاتنا كل ليلة، حتى لو لم نطلب منها."

أمي تأتي بالصينية. تقول: "كل واحد منكم يخلّي باله من نفسه. الصحة ما إلها بديل."

نجلس كلنا حول طاولة صغيرة. لا خطب ولا دراما. مجرد وجوه دافئة وقناديل صغيرة في الكلام.

أكتب في ذهني: الحوار البسيط أحيانًا يُنقذ أكثر من كل النظريات.

الفصل الثالث:

مطر مؤجَّل

الليل يمرّ كأنه يجرّ وراءه حقيبة أصوات. أسمع الهمس القديم: "ليان..."

لكنّ الصوت ضعيف، بلا مجادلة.

أقول: "أعرفك. اجلس على كرسيك."

يفعل. لا يصرخ ولا يطالب. مجرد همسٍ مثل مطرٍ مؤجّل، يقف عند النافذة ولا ينزل.

أشرب ماءً. أكتب: الغياب صار مثل ضيف يعرف قوانين البيت: لا يدخل المطبخ، لا يرفع صوته، ولا يطفئ الضوء.

أغلق الدفتر. أبتسم وأنا أطفئ المصباح.

في الظلام، لا يخيفني أن أسمع اسمي. صار يشبه أغنية بعيدة لا تعيق النوم.

الفصل الرابع:

المائدة المستديرة

المساء يجمعنا حول طاولة الطعام. أمي، نور، يوسف، وأنا.

الحساء بسيط: عدس بالكمون. الخبز ساخن. ضحكة أمي أخفّ من المعتاد.

نور تسرد قصة عن زبون اشترى لوحة لأنه "شمّ فيها مطرًا". يوسف يتحدث عن الشجرة التي تحتاج تقليمًا كي تكبر.

أقول: "وأنا عندي متحف شظايا صار غرفة كاملة."

نضحك جميعًا. لا أحد يسأل عن الغياب. لا أحد يعظ. فقط طعام وأحاديث صغيرة تشبه مسامير تثبّت خشب السفينة.

أكتب في داخلي: المائدة المستديرة لا تحتاج بطلًا. يكفي أن يكون الجميع حاضرًا بنصف ابتسامة.

الفصل الخامس:

حبة تُبتلع كقصيدة

الصباح هادئ. أفتح النافذة. الهواء يضع يده على كتفي كصديقٍ صادق.

أضع الحبة على لساني. لا أستعجل الماء. أتركها لحظةً، كأنها كلمة تريد أن تتذوّق الهواء قبل أن تختفي.

ثم أبتلعها مع رشفة.

أكتب في الدفتر: الحبة ليست قيدًا، هي بيتٌ صغير للاتزان. وأنا أزوره كل صباح. أحيانًا بالترحيب، أحيانًا باللامبالاة. لكنه يظلّ بيتًا.

أضيف: اليوم ابتلعتُ قصيدةً لا كبسولة.

أجلس عند المرآة بلا شال. وجهي لا يعترض. أبتسم. الظلّ في الكرسي ينظر من بعيد ولا يتقدّم.

أغلق النافذة، وأقول لنفسي: "ليان، أنتِ قصيدةٌ قابلة للحياة."

الجزء الرابع:

الحبّة الأخيرة

الفصل السادس:

ظلال لا تُخيف

نهاري يمرّ كالخبزِ حين ينضج على مهل: رائحةٌ مطمئنة، هشاشةٌ خفيفة على الحواف.

اشتغلتُ بترتيب رفّ الكتب، مسحتُ الغبار عن عناوينٍ هجرتُها عندما كان الليل يُعلّمني النحيب بدل القراءة.

الأم في المطبخ تُحادث القدر وكأنه ابنها الصغير: "اهدأ... لا تغلي سريعًا."

نور ترسل صورة لوحةٍ قيد التجفيف، وفيها كرسيّ بلا أحدٍ سوى ظلِّ زهرةٍ على الجدار.

يمضي النهار بلا زيارة للغياب. لا رسالة هامسة، لا اسمٌ يجرّ معه حقيبة أصوات.

أكتب السطر اليومي: الهدوء لا يحتاج بطولة؛ يكفي أن لا أزعجه.

في المساء، يطرق الظلُّ البابَ بخفّةٍ يعرفها البيت: طرقة واحدة، صمتٌ، ثم همسة: "هل تسمحين؟"

أفتح له الكرسي. أجلسُ مقابله وبيدي كأس ماء.

— "يمكنكَ أن تبقى عشر دقائق."

— "أحتاج ثلاثًا فقط."

يمرّ مثل سحابة لا تصدّق نفسها. لا يلمس الزهرَة. لا يشرب الماء.
قبل أن يقوم يقول: "تعلمين الآن أنني لستُ سيفًا، أنا ظلّ."
أجيب: "وتعلم أنتَ أنني لستُ ساحة حرب، أنا بيت."
يهزّ رأسه ويذهب.

أطفئ المصباح. أنام دون أن أحرس الباب.
وأحلم للمرة الأولى منذ زمنٍ طويل بليلٍ ليس له أسنان.

الفصل السابع:
رسالة إلى نفسي القادمة
صباحٌ يليق بالكتابة إلى امرأةٍ سأكونها بعد عشر سنين.
أفتحُ دفتري الكبير، أضع عليه زهرة نعناعٍ لترافق الحبر. أكتب:
إلى ليان بعد عشر سنوات،
إذا قرأتِ هذا، فاعلمي أنّي وضعت لكِ ماءً وزهرةً على الكرسي.
لا أعرف أين تسكنين الآن، ولا إن كنتِ تقلّصتِ إلى غرفةٍ أصغر أو اتّسعتِ إلى بيتٍ فيه شبابيك كثيرة.
أعرف فقط أن اسمكِ لم يتغيّر، وأنّ الليل — مهما تلطف — سيحاول أن يذكّركِ بأنه قديمٌ في هذا العالم.
إذا جاءكِ الغياب متأنّقًا، لا تصفّقي له ولا تطرديه؛ اجعليه يجلس ويصمت.
اشربي نصف ليمونة إذا تعبتِ من السكّر.

أكتبي سطرًا ولو كان سخيفًا: أنا هنا.

تذكّري الأم وهي تُهدّئ القدر، ونور وهي ترسم بابًا، ويوسف وهو يضع النعناع على النافذة ثم يمضي بلا تبشير.

لا تبحثي عن نهايةٍ تُرضي الجميع. اختاري عادةً واحدة تُرضي قلبكِ.

وإذا خانتكِ كل الوسائل، ضعي يدكِ على صدركِ، وقولي اسمك ثلاثًا... ثم نامي.

ليان القديمة التي صارت تعرف طريق المطبخ في الليل من دون ارتعاش.

أطوي الرسالة وأضعها في ظرفٍ أبيض. أكتب عليه: تُفتح عند الحاجة... أو عند الفرح.

ألصق الظرفَ خلف اللوحة الصغيرة فوق الكرسي.

ثم أُعدّ ماءً بليمون، وأجرّب الهدوء على جرعاتٍ قابلةٍ للتكرار.

الفصل الثامن:

فقدٌ صغير

قطةُ العمارة — تلك التي كانت تقف على الدرابزين كحارسٍ من مخمل — لم تعد.

عثر عليها الجار العجوز عند ظلِّ الشجرة التي زرعها منذ سنين.

وقفنا — أنا، الأم، يوسف، ونور — نحدّق في صمتٍ يعرف ما يفعل.

أحضرت نور قطعة قماشٍ قطنيةً بيضاء. لففناها بالحنان الذي نملكه لوداعٍ صغير لا يطلب المسرح.

قال العجوز وهو يحفر حفرةً ضحلة بملعقة البستان: "الأشياء التي نحبّها تتعلّم النوم في الأرض كما تتعلّم في أسرّتنا."

وضعتُ في الحفرة زهرة نعناع. قالت الأم: "حتى التراب يحبّ الروائح الطيبة."

دفنّاها. لا خطاب. لا بكاء حادّ. فقط وجوهٌ تلمع بنقطة ماء في العينين وتعرف أنّ الفقد جزءٌ من نصّنا.

عدنا إلى الدرج.

همستُ لنفسي: اليوم حزنتُ دون أن أنهار. هذا تمرين متقدم على الإنسانية.

في المساء كتبتُ: الفقد الصغير يُدرّب القلب على ألّا يتّسع للأحزان دفعةً واحدة، بل يلمّها إلى حديقةٍ تُسقى عند اللزوم.

الفصل التاسع:

النافذة المفتوحة

التقيتُ يوسف عند البقالة. يختار ليمونًا بعينٍ خبيرة، كأنه ينتقي قمرًا جاهزًا للعصر.

قال: "كيفكِ اليوم؟"

— "قابلةٌ للعيش."

ضحك: "هذا أحسن تعريف سمعته."

مشينا قليلًا بمحاذاة الشارع. لا موسيقى خلفية، فقط وقع خطواتٍ يتبادل التحايا.

أخبرني عن أبيه الذي صار ينسى قليلاً ثم يتذكّر كثيرًا عندما يشمُّ الزعتر. قلتُ إنّ أمّي بدأت تتصالح مع المرآة.

توقّف فجأةً وسأل: "بدّكِ قهوة على العتبة؟"

أومأت. جلسنا على عتبة العمارة، فنجانان صغيران ورائحة حنانٍ مقطّرة.

قال: "أنا مش شاعر، بس بفكّر إنو الطمأنينة ممكن تكون مشروع اتنين... إذا ما ضغطنا عليها تصير قصيدة."

نظرتُ إلى يديه وهما تحملان الفنجان كأنهما يدفئان عصفورًا. قلت: "وأنا أفكّر إنو القصيدة ممكن تكون مشروع اتنين... إذا ما ضغطنا عليها تصير وعدًا."

ابتسمنا. لم نعد نحتاج أن نسمّي هذا اللقاء. يكفي أنه نافذةٌ تُفتح عندما يريد الهواء أن يدخل.

قبل أن ننهض، وضع في يدي ليمونة وقال: "لأيامٍ مرّةٍ قليلًا."

أجبته: "وبعض المرارة شفاء."

لوّح، ومضى على مهل.

عدتُ إلى البيت ومعي فاكهةٌ تُضيء الكيس من الداخل.

الفصل العاشر:

الحبّة الأخيرة

الفجر يتأخّر دقائقَ كمن يراجع نصّه قبل العرض.

أقف عند النافذة. المدينة لا تزال تتثاءب. في الغرفة كرسيّ، فوقه زهرة، وبجانبه كأس ماء ممتلئ حتى نصفه — لا أكثر ولا أقل.

أرفع الشال... لكن لا شال. تعلّمتُ أن أراه ذكرى، لا واجبًا.

أضع الحبّة البيضاء على لساني. لا أقول دعاءً كبيرًا. أقول فقط: ليان.

أشرب رشفةً من الماء. الحبة تنزل في حلقٍ أخفّ من البارحة، أثبتَ من الأمس.

أجلس على حافة الكرسي الآخر. الظلّ في مكانه، حجمه مناسب لزاوية الضوء.

أكتب السطر الأخير لهذا الصباح: الشفاء لم يكن وعدًا... كان عادةً أختارها كل يوم.

أضيف تحته بخطٍّ أصغر: وإذا خانني الاختيار، هناك ماءٌ واسمٌ ونافذةٌ ومَن يقرع الباب بأدب.

السماء توشك أن تُسلّم الصبح مفاتيحَ الأزقّة. أفتح النافذة أكثر.

أسمع خبزًا يُخبَز في فرنٍ بعيد، وقطةً — ليست قطة العمارة — تحكُّ ظهرها بجدارٍ قانعةً بنصيبها من الليل.

أضع الليمونة التي أهداها يوسف على حافة الكأس؛ قمرٌ صغير يستريح على بحيرةٍ صغيرة.

أبتسم. أقول: "يا بيت... اتّسعْ."

البيت يتّسع. والنهار يدخل مثل صديقٍ يعرف أين يضع معطفه.

لا أبحث عن نقطة نهاية. أترك السطر مفتوحًا، كما يُترك بابٌ مواربٌ لنسمةٍ تعرف طريقها.

أطفئ المصباح، وأترك الضوء يأتي من العالم.

— تمّت الرواية